في الأدب الأندلسي الشعبي

ابن قزمـــان

للأســـتاذ أحمد مدينة

العربية واللاتينية ، هما اللغتان اللتان كانتا سائدتين في إسبانيا الإسلامية ، وعنهما تفرعت لغتان عاميتان : اللاتينية الدارجة « الرومنسية أو العجمية » لغة الصبيان والأحداث ، وأرباب الصناعة والزوجات الإسبانيوليات، والعربية الدارجة ، متأثرة بالعجمية والبربرية :

داب نعشق لأليه نجيمـــه
من يحبـــك ويموت فيـــك
إن قتلت عاد يكون بيـــك
لو قـــدر قلـــبي يخليك
لم يـــدبر ذا النغيمـــه
يامطرنن شلباطُ (يا مذهول)
نن حزين تن بناطُ (إنك مكروب)
ترى اليوم وشْطاطُ (ضائعاً)
لم تذق فيـــه غير لقيمه

بهذه اللغة نظم ابن قزمان — أبو نواس الأندلسي — أزجاله ، فطار صيتها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتأثر بها الشعراء الأوربيون في تأليف الأغاني الشعبية لا سيما شعراء « التروبادور » ، وعلى رأسهم « الكونت ده بواتيي » البروفنسالي

نشأ الشاعر في قرطبة وتوفي أوائل النصف الثاني من القرن السادس بعد أن تجاوز الثمانين سنة قضاها متنقلاً ، بين إشبيلية وجيّان وبلنسيه

كان طويل القامة أشقر الشعر ، أزرق العينين ، تزوج ، ثم هجر زوجه لما لقيه فيها — وفي بنات جنسها — من المكر والخديعة :

أنا تايب يالس نقول بزواج
ولا بجلوَ ولا عروس بتـــاج
لا رياســـة غـير اللعب بالزجاج
والبيت برّ والطعـام والشراب

* * *

النسا ، كما في علمك ، الهروب منهم غنيمه
لس نرى لوحدَ منهم ما بقيت في الدنيا قيمه
وســوى تـكن فعيني الجديدَ والقديمه
والبعيدَ والقريبَ والسمينة والدقيقة

عاصر من القواد يوسف بن تاشفين وابنه علي وحفيده تاشفين ، ومن الأدباء ابن بسام صاحب « الذخيرة » ومن الفلاسفة ابن باجه وابن رشد

في أزجال ابن قزمان يتقلص ظل التأثير الشرقي في الأدب الأندلسي ، فلا أطلال ، ولا دمن ولا صحراء ولا جمال نجد لها ذكراً في ديوانه ، بل هو نفسه يستنكر احتذاء الأقدمين ويعمن في تعرية أزجاله من الإعراب ، موجهاً لومه لأستاذه أخطل ابن غارة لالتزامه له :

« ولما اتسع في طريق الزجل باعي ، وانقادت لغريبه طباعي وصارت الأئمة فيه حولي وأتباعي ، وحصلت منه على مقدار لم يحصله معي زجال ، وقويت فيه قوة نقلتها الرجال عن الرجال . وصفيته عن العقد التي تشينه ، وسهلته ، حتى لان ملمسه ، ورق خشينه ، وعريته من الإعراب ... وجعلته قريباً بعيداً ، وبلدياً غريباً . ولقد كنت أرى الناس يلهجون بالمتقدمين ويعظمون أولئك المتقدمين يجعلونهم في السماك الأعزل ويرون لهم المرتبة العليا والمقدار الأجزل ، وهم لا يعرفون الطريق ، ويذرون القبلة ويمشون في التغريب والتشريق ، يأتون بمعان باردة وأغراض شاردة ، وألفاظ شياطينها غمز ماردة ، والإعراب وهو أقبح ما يكون في الزجل ، وأثقل من إقبال الأجل . ولم أر أسلس

فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتمُ
فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملي

وكيف ودي ما حييتُ ونصرتي
لآل رســـول الله زين المحافلِ

وقد ذكر الزبير بن بكار أنه قيل لعائشة رضي الله عنها وقد قالت في حق حسان رضي الله عنه إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس هو ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت : لم يقل شيئاً ، ولكنه القائل :

فإن كان ما قد قيل عنّي قلتُهُ
فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملي

عبد المتعال الصعيدي

طبعاً وأخصب رَبْعاً ـ ومن حجوا إليه طافوا به سبعاً ـ أحق برياسة فى ذلك والإمارة ، من الشيخ أخطل بن غارة . فإنه نهج الطريق ، وطرق ، فأحسن التطريق . ولو لم يكن له رحمه الله من قوة التخيل وصحة المعارضة إلا ... كقوله : أنا من أهل البادية ، ومعى دارا خالية ، ملأ بدم الدالية ... وليس اللحن فى الكلام المعرب القصيد أو الموضح بأقبح من الإعراب في الزجل . ولو عاش ابن غارة ، وأحضرنا وإياه سلطان وضمّنا قصر ، حتى يسمع الغرائب والأسمار لحار ، ولعلم أن لنا قصب السبق ولواء الغلب

سمى ديوانه « إصابة الأغراض فى ذكر الأعراض » وفيه يصف أعياد المسلمين والمسيحيين ، ويفرط فى ذكر محاسن الغلمان ، وامتدح السكارى والمخمورين ، ومجالس الشراب ، ولا يخفى تبرمه بالصوم :

تركيب الإنسان مذ كان لطيف
وبالصيام قد صرت نحيل ضعيف
رقيق أنا يابس أصفر نحيف
يحملنى البرطال (العصفور) فى شان شاله

ولا سخريته بالفقهاء :

اسمع اش قلّى الفقى : توب ، إن ذا فضولى أحمق !
كيف نتوب والروض ضاحك والنسيم كالمسك يعبق !؟

فطعن من أجل ذلك فى دينه ، وكاد يقتل لولا أن لطف به أحد القضاة من أصحابه

وهو إذ ينظم الزجل ، لا يعبر فيه دائماً عن إحساسه الشخصى ، وإنما يؤلف الكلام لينشده المغنى على لسان ملك ، أو تاجر أو عبد مسترق أو امرأة . وقد يكون المغنى والمستمعون كلاهما من المتسولين والمشعوذين والمحتالين ، بل مما لا غنى عنه أن يتألف منهم « الكورس » لترديد « المركز » كلما كف المنشد عن الغناء ، وقلما تحتجب — فى مثل هذه المحافل الشعبية — العيدان والمزامير والطبول والمصافق وغيرها من آلات الطرب ، مع الاستعانة بالرقص فى بعض الأحيان .

الريواله

يرجح أن الذى عثر عليه فى العراق هو « روسو » قنصل فرنسا فى بغداد ، ثم بيع للاسكندر الأول قيصر روسيا سنة ١٨٢٥ فضم إلى المخطوطات الشرقية فى المتحف الآسيوى بسان بترسبورج (لنينجراد) وبقى منسياً فيه إلى سنة ١٨٨١ حين كتب عنه « البارون ده روزن » ، ثم نشره « البارون ده جوزبرج » بالتصوير الشمسى سنة ١٨٩٦ ، وضمنه وعدا بإيراد سيرة الشاعر ، وترجمة أزجاله ومقارنة لغتها بلهجات الأندلس وشمالى إفريقية ، خلال القرن السادس ، ولكن الموت أدركه سنة ١٩١٠ ، دون أن يفى بما وعد . ثم جاء بعده المستعرب الإسبانى « ريبرا » ، فألقى محاضرة عنه طبعت سنة ١٩١٢ وفى عام ١٩٣٣ طبعه « نيكل » فى مجلة الأندلس بحروف لاتينية إلا المقدمة ، فإنها بالرسم العربى ، وعنى بذكره بعد ذلك الأستاذ بلينسيا فى كتابه « تاريخ الأدب العربى فى أسبانيا » المطبوع سنة ١٩٢٨

وأخيراً يردد فى الدوائر الأدبية أن المسيو لاوى بروفنسال شرع فى التأهب لنشره

والديوان المطبوع بالتصوير الشمسى منسوخ بخط شرقى « استكتبه لنفسه الأديب محمد بن أبى بكر القطان بصفد المحروسة استحساناً له وغواية فيه »

أحمد مدينة

ليسانسيه فى الآداب من جامعة فاروق الأول

سعد زغلول من أقضيته

ألفـــه

عبده حسن الزيات

المحامى

كتاب قانونى أدبى فى ٤١٦ صفحة من القطع الكبير على ورق جيد

يطلب من مكتب المؤلف رقم ١٠
شارع ابراهيم باشا — القاهرة
ومن المكتبات الشهيرة